فالمعروف يلتمع فى وجه المهدى كما يلتمع الثغر فى الكعاب ، وهو يفوق الشباب فى جماله وبهائه . وهذا مديح جديد يصف إشراق الفضل فى وجه الممدوح ، يعطى وهو راض ويمنح وهو مبتسم ، فيضحك الخير فى قسماته وتبدو بشائر الجود والندى على محياه . ويزيد بشار أن الخليفة يكره الفحش ويضرب أعناق الرجال وهو حليم مظفر كريم ، شهم وقور ، ونعلاه تشمهما فى الندى لشدة نظافتهما ، وأعضاؤه تثير الطيب لشدة طهارتها ، فكأنه الريحان فى أنوف الندامى ، وهو ملك تسجد له الملوك يرعى حقوق العرب . ويلح الشاعر على هذه الصورة التى رسمها للممدوح يضحك للندى فيقول :

لَمَّا رآنى بَدَتْ مَكَارِمُهُ نورًا على وَجْهِهِ وَمَا اكْتَأَبا

كأنّما جئتُه أبشِّرُهُ ولم أَجِئْ راغباً ومختلبا

والكريم من يضحك حين يعطى ، فكأنك تعطيه الذى أنت سائله ، وتبشره بالربح كأنك لا تسلب منه ولا تكتسب من ماله . ويبالغ بشار فى مديح الخليفة حتى ليرى عليه سماء النبوة ، ويقرر أن عنده حجيج القلوب تؤمه لترى الخير والنور والبركة . والأمن على ذلك مستتب فى جميع الربوع والأصقاع ، يسدّ الثغور بخيل الله ملجمة ، ويصلح الفاسد ويداوى الصدور ، فتخضع له العرب والعجم لقوته وكرمه ، فهو يحيى البلاد بعد موتها ويخرج فيها النور بعد ظلمتها ، لذلك يدعو له بالبقاء وطول العمر ، لعل الله يجعل للبلاد الإسلامية على يديه النصر والفوز والعمران .

ولعل بشاراً من أوائل الشعراء الذين نقلوا مديح الملوك من ميدان الكرم والشجاعة إلى ميادين جديدة ، فيها حب الرعية والإخلاص للشعب والخير للبلاد حين تلفت العباسيون إلى هذه المعانى فاتخذها الشعراء ديدناً وألحوا على ذكرها . ومثله أبو نواس فى ذلك إذ سمى الرشيد « أبا الأمناء » ورأى أن سياسته خير سياسة ، فقد نزع التحاسد بين الناس وألف بين قلوبهم ، وجمع شتات آرائهم ، فقال :